

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٢ - سُورَةُ الْجِنِّ

قال المهايي : سميت بها لاشتغالها على تفاصيل أقوالهم في تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا في قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .
وهي مكية . وآياتها ثمان وعشرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)
 [٢] (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن نفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهب - كما فى (المجمل) - . قال القاشانى : قد مرّ أن فى الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا فى غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكشافها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيات النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام السكيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا فى صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوى ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، علبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومها وإدراكاتها . ولما كانت قريبة بالطبع إلى المسكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجعت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتمل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تنزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوى فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبينا محمداً ﷺ . انتهى .

وفي الآية - كما قال القاضي - دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام مارآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .
 « فَقَالُوا » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا » قال المهاجى أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .
 « عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولا يدخل تحت قدرتهم .
 « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَأَمَّا مَن يَكْفُرْ بِرَبِّهٖ » وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول - هذا المقام شبيه بقوله تعالى (١) « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ » الآية . وقد روى البخارى (٢) عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم ؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعون له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ! إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا يهدى إلى الرشـد فأما به ولن نـشرك ربنا أحـدًا . وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : (قُلْ أُوْحِيٓ إِلَى أَنَّهُ أُسْتَمْعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٧٢ - سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم ^(١) أيضاً وزاد في أوله : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثاني - قال الماوردي : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول . أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبي المبشر به ، وكلا الأمرين في الجن محتمل . انتهى .

الثالث - قال الرازي : في الآية فوائد :

إحداها - أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .
وثانيها - أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فأمنوا بالرسول .

وثالثها - أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .
ورابعها - أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .
 وخامسها - أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .
 وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .
 ولما سمعوا القرآن ، ووقفوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقدوه كفر الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذها صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، وزهوه عنه ، فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنَّهُو تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

« وَأَنَّهُو تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ صاحبة والولد .

(١) أخرجه في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعنا) .

قال ابن جرير^(١) : الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جدّ في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذي يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تكون له صاحبة ولا ولد ، لأن صاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شيء يكون منه ولد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُوَ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُوَ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُوَ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى اللَّهِ شَطَطًا » أى قولاً

ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة

الحدّ . والمراد منه نسبة صاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى في نسبة ما ليس بحق ، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم

السفيه في ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبين لهم بالقرآن كذب السفيه

وافترأوه . « وَأَنَّهُوَ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

روى ابن جرير^(٢) عن ابن عباس قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية

فيقول : أعوذ بعزير هذا الوادي ، فزادهم ذلك إثماً . ففي الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميمهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شر ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفرق . وقال ابن زيد : كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال : إني أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوه . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكرك الاستعاذات المأثورة ، فإنها للإرشاد لذلك . روى مسلم ^(١) عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : في الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفي الآية تأويل غريب نقله الرازى . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف ، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . انتهى . والضمير المرفوع في (فزادوهم) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غياً وإثماً وضلالاً . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتواً .

و (الرهق) في الأصل غشيان الشيء ، نفخ بما يعرض من الكبر أو الضلال .

(١) أخرجه في مسلم : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعنا)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

[٨] (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا)

[٩] (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللِّسَمِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ وَشُهَابًا رَّصَدًا)

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلى أن الجن « ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ » أى فى جاهليتهم
« أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا » أى رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيدهم وما فيه سعادتهم.

أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالًا) (وَأَنَّهُمْ

ظَنُّوا) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » أى تطلبتنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ

حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا » أى حَفَظَةً ورواجم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللِّسَمِ فَمَنْ

يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ وَشُهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ،

وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجده شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشري : وفى قوله (مَلَأَتْ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك

قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب .

والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على

رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

« وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعمهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أراد الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك بمثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا)

[١٢] (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ وَهَرَبًا)

[١٣] (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ، فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

[١٤] (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَن أَسْلَمَ فَأُوَّالَيْكَ تَحَرَّوْا وَارْشَدُوا)

[١٥] (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

[١٦] (وَاللّٰوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا)

[١٧] (لِنَقْتَبَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

« وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ » أى قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه ، أو الكافرون « كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقا شتى . وهذا بيان للقسمه قبل . أى كنا مثلها أو ذويها . و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه . و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدة) كالقطعة .

« وَأَنَا ظَنَنَّا » أى علمنا « أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءاً
« وَلَنْ نُعْجِزَهُ وَهَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشري : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم
أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ،
ولا يُنجي عنه مهرب .

« وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِ »
أى صدقنا بأنه حق من عند الله ، « فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص
من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلة ، وتلحقه هيئة معذبة موجبة
للخسوء والطرود . معنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتسكون له فى العز العاقبة الحسنى .
« وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ » أى الكافرون الجائر عن طريق الحق ،
« فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخّوا رشداً
عظيماً ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى
للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعدهم قاسطهم ، وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال (فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب
الراشد . « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس .
« وَأَلْوِ اسْتَقِمُوا » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى الطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل
« لَا سَفِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق ، وهو الكثير ،
عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه
بالأولى . « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خلّوا منه . « وَمَنْ يُعْرِضْ
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى عبادته أو موعظته « يَسْكُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقاً .

قال الزخشرى : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صعداً وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المذنب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

« وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام ، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدَّ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهب الحنابلة إلى أنه لا يجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

« وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجباً مما رأوه من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُوا) للجن . وقد بين ذلك حديث البخارى كما تقدم . وجوز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى : لما قام رسولا يعبد الله وحده ، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهروا عليهم ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكبين - حكاة الزخشرى - ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد به بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا » أى فليس ذلك بيدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقضى . « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلوني بالعذاب .

قال الشهاب في توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضّرّ الغنى ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر في الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، ولا غياً ولا رشداً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ

نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءاً « وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » استثناء من قوله (لَا أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحي ، وأحكام الحق . « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَآى فَلَمْ يَسْمَعْ مَا جَاءَ بِهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ مَا يَبْلُغُهُ » فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ « آى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الآخروى . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُّ عَدَدًا » آى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا)

[٢٦] (عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)

« قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا » آى غاية تطول مدتها . « عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » آى حرسا من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانى : (رصداً) آى حفظة إمام من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملوكوتية والربانية . وإمام من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوسوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية ، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشري : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا لكل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم ، وإن كانوا أولياء مرتضين ،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جليلة الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إله رسولاً ارتضاء لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالاته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالاته بأن يكون معجزة دالة على صحته ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعمامة التكليف الشرعية التي أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم ، وأجزيتها المترتبة عليها في الآخرة ، وما تتوقف هي عليه من أحوال الآخرة التي من أجلها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التي بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التي من أجلها قيام الساعة ، فلا يظهر عليه أحداً أبداً . على أن بيان وقته يُخلّ بالحكمة التشريعية التي عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القصية من مراتب الكشف بالرسل ، لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح . انتهى وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسق في الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إله رسولاً قد ارتضاء لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلع على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان (من ارتضى) . والولى إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر ببناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولى فهي معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازى : وعندى أن الآية لادلالة فيها على شيء مما قالوه - يعنى الرخشرى ومن تابعه - والذى تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفى في العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذي يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله : (إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوَعَّدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ وَرَثَةً أَمَدًا) يعني : لا أدري وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد . وبالجمله فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى في العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس في اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال ^(١) (وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّيْمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) ولا شك أن الملائكة يعلمون في ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه مخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقاتله . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك . وناقشه في العناية بأن الرضى حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه . هذا ، ونقل النسفي عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم : في هذه الآية تكذيب النجمة ، وليس كذلك ، فإن فيهم من يصدق خبره ، وكذلك المتطية فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لا يعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انتطع أثره ، وبقي علمه في الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقه زعماء بأن معرفة مواقيت الكسوف ، وخواص المفردات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يقيس للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب في شيء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبي أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل، وينزع الاستقلال من الإنسان، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شيء بالتسليم، ولوجب أن يكون عدد الرسل في كل أمة كافياً لتعليم أفرادها في كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت فقل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذي نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم في كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التي ترتق بها نفوسهم، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد في العبرة. وقد أُرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه في مسائل دنيانا في واقعة تأيير النخل إذ قال (١) (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى. فاحفظه فإنه من المضمون به على غير أهله. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ بَلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) «لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ بَلَغُوا رَسُولَنَا رَبَّهُمْ» متعلق بـ (يَسْأَلُ) غاية له. والضمير إما لـ (الرصد)، وإما لـ (مَنْ أُرْتَضَى). والجمع باعتبار معنى (من). أى ليلبغوا، فيظهر متعلق علمه. وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة في الحث عليه، والتحذير عن التفريط فيه. «وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» أى بما عند الرصد، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْأَلُ) جىء بها لتحقيق استغنائها تعالى في العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد. «وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» أى فرداً فرداً لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره.

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في: ٤٣ - كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).